الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة –

كلية الشريعة والاقتصاد

قسم الفقه وأصوله

الملتقى الدولي حول: "المدينة والتطور العمراني في ضوء فقه العمران والاجتماع البشري"، المنظم من طرف الكلية بالتنسيق مع قسم الفقه وأصوله، والمنعقد يومي الأربعاء والخميس 24 و25 شعبان 1442هـ الموافق 07 و08 أفريل 2021م.

معالم المشهد العمراني في إقليم الزاب في ظل التواجد الهلالي الرياحي، من الخيمة إلى القصر خلال القرن 8هـ/16م.

ط.د. بوقاقة حليمة

الرتبة: طالبة دكتوراة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الملخص:

سمحت الإقامة التي تلقاها ابن خلدون في منطقة الزيبان تحديدا: الدوسن، فرفر وبسكرة، بتكوّين معطيات دقيقة، حول تشكّل المفهوم الجغرافي للزاب الهلالي بفضل رحلته التي ألفت في فترة تاريخية معقّدة تميّزت بعدم الاستقرار السياسي، مع نص ابن خلدون نحن نتعامل مع ست مناطق ترجع كلها للزاب: الدوسن، طولقة، مليلي، بسكرة، تهودة وبادس، خصص لكل منها مفردات ارتبطت ارتباطا وثيقا بالتحركات الهلالية مشكلة مايسمى: ضواحي الزاب(مناطق الرعي)، مجالات الزاب(أراضي البدو)، والبادية(أراضي الرحل) كشهادة واضحة على تحوّله إلى قطب للاستيطان المحلي.

من خلال هذا التحوّل الهام الذي رافق الهلاليين من نشاط الإغارة والبدونة إلى الإستقرار والتوّطن ظهرت دراسات تاريخية تضاف إلى مجموع ما كتب عن الهلاليين وهجرتهم إلى بلاد المغرب، محاولة تجاوز الصورة النمطية التي أنتجتها الإستوغرافيا الوسيطة والكلونيالية، وخلدنة النصوصkhaldunisation ، تحت مسمّى الكارثة الهلالية، فبعد المقال الأخير للدكتور علاوة عمارة[1] الذي لمسنا من خلاله استعادة المشهد القبلي في إقليم الزاب، من خلال مساهمة العنصر الهلالي في تعميره وظهور قرى تنسب لهم نموذج:الوطاية وفرفر.

أصبح هناك مقاربة أخرى لتناول هذا الموضوع بعيدا عن أطروحات المعارضة بين الأعراب الهلاليين (

[1] بعنوان: التحولات المجالية والطبونيمية لبلاد الزاب من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر ميلادي، أعمال الملتقى الوطني الأول حول التراث في منطقة الزيبان، مجلة تراث الزيبان، عدد1، 2016.

البدو) والبربر المستقرين[1]، إذ يظهر الهلالي كذلك كأحد العناصر الفاعلة في تحويل بعض الفضاءات إلى قطب للاستبطان المحلي، في ضل التحيّز المجالي بالغلبة أو بالإقطاع، هذا مانريد تناوله من خلال هذا العنوان الذي سيتضمّن استقرارهم في إقليم الزاب وظهور مجموعة من الحصون والقصور التي تنسب لهم على غرار: حصن يعقوب بن علي الرياحي، قصر عثمان بن علي بن أحمد الرياحي وقصر سعيد بن موسى بن أحمد الرياحي، وذلك من خلال معالجة الإشكالية الخّاصة بتحوّل الجماعات الهلالية من التنقل إلى الاستقرار والتوطن بالقصور حسب ما ورد في النصوص التّراثية الوسيطة.

الكلمات المفتاحية: الهلاليون-إقليم الزاب-حصن-قصر-قصبة طولقة.

Résumé :le passage d'ibn khaldun dans la région d'Al-Zayban en particulier :Al-Dawsan,Farfar et Biskra a permis de générer des données précises sur la formation du concept géographique du Zab Hilalien grâce à son parcours qui s'inscrivait dans une période historique complexe marqué par l'instabilité politique, avec le texte d'Ibn Khaldun nous avons affaire à six régions qui renvoient toutes au Zab :Dawsan,Tolga, Melili, Biskra, Tahouda et Bades.

Dont chacune consacre un vocabulaire étroitement lié aux mouvements des hilaliens composé :les environs du Zab(zones de pâturage),les bourgades du Zab(terres des bédouines)et Badiya (terres des nomades) comme un témoignage clair de sa transformation en un pole de peuplement locale.

A travers cette transformation importante qui a compagné les hilaliens de l'activité bédouine vers la stabilité et la colonisation, des études historiques sont apparues qui se combinent avec l'ensemble de ce qui a été écrit sur les hilaliens et leur migration vers les pays du Maghreb.

Une tentative de dépasser l'image stéréotypée produite par l'historiographie médiévale et la khaldunisation des textes, sous le nom de catastrophe hilalienne, après le dernier article du Dr Alloua Amara, à

[1] أوّل من حوّل المعارضة بين البدو والمستقرين لصالح الاستعمار هو لويس ماسينيون، حينما ترجم مصطلح الأعراب إلى مفهوم عرقي خاص بالعرب، مستغلا الخلط الذي تكوّن من خلال الترجمة التي قام بها البارون دوسلان لتاريخ العبر لابن خلدون، للمزيد من المعلومات ينظر: عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 2009، ص257.

travers lequel nous avons touché la scène tribale dans la région du Zab à travers la contribution des hilaliens dans sa reconstruction, l'émergence des villages qui leur sont attribués sont les modèles :Al-Wattaya et Farfar.

Il a aussi une autre approche pour traiter ce sujet loin des thèses d'opposition entre les bédouins hilaliens(nomades) et les berbères sédentarisés, car le hilalien apparait également comme l'un des acteurs de la transformation de certains espaces en un pole de peuplement local à la lumière du préjugé spatial par dominance ou féodalisme, c'est ce que nous voulons aborder à travers le titre qui inclura leur implantation dans la région de Zab et l'émergence d'un groupe de forts et de palais qui leur sont attribués.

Exemples la forteresse de Yaqoub ibn Ali al-Riyahi, le palais d'Othman Ibn Ali Ibn Ahmed al-Riyahi et la palais de Said Ibn Musa Ibn Ahmed al-Riyahi, en abordant la problématique de la transformation des groupes hilaliens de la mobilité à la stabilité et l'installation dans les palais selon ce qui a été mentionné dans les textes du moyen âge.

Les mots clés :les hilaliens-région de Zab-hisn-Palais-la Qasba de Tolga.

1.المقدّمة:

شكّلت الهجرة الهلالية أحد أهّم المحاور التي دار حولها النقاش التاريخي سواء بالنسبة للإستوغرافيا الكلونيالية أو العربية، استنادا للترجمة التي قدمها البارون دوسلان[1] لتاريخ ابن خلدون، تمّ تناول الموضوع من وجهة الآثار الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، بداية مع وليام مارسي في إطار أبحاثه حول تعريب شمال إفريقيا في محاضرتين في جامعة لندن عام 1939، والتي نشرت لأول مرة في حوليات معهد الدّراسات الشرقية بكلية الآداب بجامعة الجزائر[2].

[1] إيرلندي الأصل، فرنسي الجنسية، تخرّج على يد سلفستر دي ساسي، وعين مترجما في وزارة الحرب، من أهم أعماله، ترجمة لوفيات الأعيان لابن خلكان وترجمة لتاريخ ابن خلدون ومقدمته ونشر كتاب المسالك والممالك للبكري للمزيد حول سيرته الذاتية، ينظر، يحي مراد، معجم أسماء المستشرقين، منشورات علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 2004، ص352.

[2] بالنسبة لWilliam Marçai فإن المحاضرات التي قدمها في مؤتمريه في جامعة لندن عام 1939 تحت عنوان: l'arabisation

بنفس الطريقة قدّم الهادي روجي إدريس مقاله حول الهجرة الهلالية وآثارها المنشور سنة 1968، كتوجه آخر يدخل ضمن عملية المقارنة، الآن تتجه الدّراسات التاريخية المعاصرة لبحوث أكثر اختصاصا وتعمقا لآثار التواجد الهلالي ومدى الاندماج الحاصل بين العنصر المحلي والوافد الجديد، من الناحية السوسيولوجية وكذا بالاعتماد على المقاربة الطوبونيمية، وهذا ما ظهر مع العمل الذي قدّمه محمّد موّاق حول الجغرافية التاريخية لواحات الزيبان وتندرج ضمن ذات التوجه منشورات وأبحاث الأستاذ علاوة عمارة التي خصت إقليم الزاب و بلاد كتامة.

بعيدا عن علامات المعارضة التي بدت في النصوص التراثية الوسيطة وشكّلت ما يصطلح عليه الكارثة الهلاليةّ، يظهر الهلالي كذلك كأحد العناصر الفاعلة في تحويل بعض الفضاءات إلى قطب للإستطان المحلي، في ضل التحيز المجالي بالغلبة أو بالإقطاع، هذا ما نريد تناوله من خلال هذا العنوان الذي سيتضمن استقرارهم في إقليم الزاب والأدوار التي مارسوها إلى غاية حصولهم على الوظائف المخزنية، وكيف سيتحوّلون من الأعراب المفسدين إلى الاستقرار والتوطن.

قبل أن نتطرق إلى استقرارهم بإقليم الزاب سنعرّج أولا على تنقلاتهم القبلية[1] التي كانت بدايتها في بلاد

---

des villes et l'arabisation des compagnes، حتى وإن كان المؤلف يحاول أن لا يبدي تأثره الكبير بابن خلدون، لكن العمل حمل بصمته في رؤيته بمقارنة وضع المدن التي بدأ تعريبها في القرن الأول هجري/السابع ميلادي مقارنة بوضع الأرياف التي ستكتمل العملية معها لاحقا في القرن 5هـ/11م مع الهجرة الهلالية. طبع العمل لأول مرة في حوليات معهد الدراسات الشرقية بكلية الآداب بجامعة الجزائر، وتم إعادة نشر هذه المحاضرات في عام 1961 تحت عنوان:comment l'afrique du nord a été arabisée، إن الطرح الذي يقدمه وليام مارسي من خلال مؤلفه يستحضر لغة المدن، كونها وريثة المدن القديمة، ولغة الريف والسهل ستستند إلى النتائج التي تقدمها أبحاث اللهجات، واستنادا إلى هذا الرأي، يوضح مارسي أنه في الريف تم تعريب بعض السكان تحت تأثير المدن الإقليمية، للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع ينظر مقال:

Gabriel Camps, Comment la berbérie est devenue le Maghreb arabe in, revue de l'occident musulman et de la méditerranée n35, 1983.

. [1] لا نجد هذا الموضوع رغم أهميته حاضر في عناوين البحوث والدراسات لكن نخص بالذكر بعض الأعمال منها:

يوسف عابد، التنقل القبلي في بلاد المغرب خلال القرن 6هـ/ الثاني عشر ميلادي، ضمن، الهجرة والرحلة، تقديم وإشراف، كمال فيلالي، ع3، أفريل 2010، مخبر الأبحاث حول حركات الهجرة، جامعة منتوري قسنطينة.

Grigori Lazerev, les mouvances de population dans les provinces sahariennes de l'histoire à aujourd'hui, texte publié dans le livre qui rend compte des communications présentées lors de l'hommage rendu au professeur Mohamed Berriane par ses collègues et des chercheurs lors de la rencontre organisée à Rabat, en juin, 2014, par la faculté des lettres et des sciences humaines de l'université Mohammed V.

Grigori Lazerev, mouvances tribales et dynamiques sociopolitiques des territoires, le Maroc du XVI au XIX siècle, article publié dans l'ouvrage les intérieures du Maghreb, sous la direction de Mohamed Aderghal et Romain Siminel, université Mohammed V (Rabat Agdal), Montpelier, 2016.

كتامة ثم دحرهم من طرف السلطة الموحدية والحفصية إلى المنطقة المفضية إلى الصحراء والزاب، أين سيهشد المجال تحوّلات طالت احتلالهم للفضاء وحفاظهم على علاقات اقتصادية قوية دعمتها التجمعات التي شيّدوها وحملت اسمهم من قصور وقلاع وبساتين كانت ضمن أوصاف كل من ابن الحاج النميري وابن خلدون.

2.التواجد الهلالي الرياحي في بلاد كتامة:

بعد رحيل الفاطميين إلى مصر، دخلت المنطقة الممتدة من سواحل بونة إلى غاية سلسلة جبال بوطالب مرحلة جديدة، بعد اندماجها في الدعوة الإسماعيلية، إذ أدى تحرّك كتامة[1] مع الجيوش الفاطمية إلى النقص الديموغرافي وتشتت قيادات القبيلة داخل المغرب الأوسط وخارجه، لا تحدّثنا النصوص عن كتامة بعد القطيعة مع القاهرة المعزية، إلى غاية دخول الهلاليين افريقية سنة 443هـ، إذ يشير ابن خلدون بعدها إلى خضوع نواحي قسنطينة إلى العرب الهلاليين تحت نفوذ مشيخة الدواودة، هيمنت هذه الأسرة التي يعتبرها جورج مارسي[2] إحدى الأسر الإقطاعيّة familles féodales في مشيخة محمد بن مسعود على جميع المناطق الممتدة بين المسيلة والزاب وقسنطينة، هذا الموقع الذي حدده لنا ابن خلدون، يظهر جميع التقدم الذي أحرزته قبيلة رياح في بلاد كتامة، بعد هزيمة الحمّاديين في معركة سبيبة[3].

لكن هذه الحيازة لم تدم طويلا، بعد صعود عبد المؤمن بن علي وانكسارهم في معركة سطيف سنة 547هـ[4]، يمكن اعتبار هذه الكارثة فاتحة حقبة جديدة في تاريخ المشيخة، والامتداد المجالي لأراضيهم التي ستنحسر أكثر باتجاه الشرق والاقتراب من الشريط الساحلي والتوقف عند وادي الصومام، تظهر تحركاتهم التي اتجهت أكثر نحو سلسلة جبال البابور وأراضي بني تليلان هدفهم من التحكم في الطريق الرابط بين قسنطينة والقل، لكن هجومات بني غانية الميورقيين على مجالات الموحدين بدءا من عام 602هـ إلى غاية أحواز بجاية ودور الشيخ مسعود في حلفه لعلي ابن غانية حملت معها القمع التدريجي للقبيلة، بعد ترحيلهم إلى بلاد الهبط.

---

[1] حول التحرّك القبلي الكتامي ينظر مقال:

Aleya Bouzid, A-propos de la mobilité des tribus berbères dans l'espace maghrébin au moyen âge, l'exemple des Kutama in, mobilité des hommes et des idées en méditerranée, Actes du colloque d'histoire, Faculté des lettres et des sciences humaines, Sousse, 1999.

[2] يجب أن ننتبه بأنه بقدر العمل الجيد والمنهج الأكاديمي في مؤلفه، إلا أنه يعتبر من الأمثلة الجيدة على آثار خلدنة المعرفة الإستعمارية، أعماله تندرج ضمن المشروع الإستعماري(1876-1962)، فهو مدير مدرسة قسنطينة التي نشطت منذ 1907، يمكن القول أنها مؤسسة بارزة في إدارة ما يسمى الإسلام الإستعماري، للمزيد من المعلومات ينظر:

Ramzi Rouighi, Mediterranean relations for the medieval Maghreb historiography in question, Almasaq, 2017.

[3] ابن خلدون، تاريخ العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الفكر، بيروت-لبنان، 2001، ج6، ص21.

[4] Georges Marçais, les arabes en berbèrie du IX au XIV siecle, Ernest Leroux, Paris, p162.

أدّى سقوط بني غانية سنة 631هـ[1]، إلى تفكك القوى الرياحية، حينما أعلنت السلطة الحفصية الحرب على الدواودة، بمساعدة قبائل بني سليم ودحر تنقلاتهم بصفة نهائية في ضواحي بجاية وقسنطينة عند المنطقة الحدودية لبني ياورار أو تاوريرت[2].التقدّم السليمي الذي وقعته الكعوب ومرداس إلى حدود بونة سيحمل معه علامات التحذير من انقسام المشيخة لاحقا إلى أسرتين متنافستين: لتصبح بذلك بلاد رياح مساوية لكل مناطق نفوذ وسلطة: أولاد محمد وأولاد سباع.

3.التواجد السليمي في بلاد كتامة والصراع مع الدواودة الرياحيين:

يرجع تاريخ انتشار مرداس ممثلة في أولاد جامع، والكعوب ممثلين في أولاد علاق، إلى هزيمة بني غانية، ورغبة الأمير الحفصي أبو زكريا في تقييد تحركات الدواودة إلى تلول قسنطينة، بترحيل بني سليم من طرابلس وقابس باتجاه الشرق إلى بونة، أحرزت مرداس تقدمها انطلاقا من مدينة أبة[3]، التي اعتبرت في هذه الفترة في إقطاع محمد بن مسعود شيخ الدواودة، قاد هذا الإجراء إلى سلسلة طويلة من التصفيات بعد مقتل شيخ أولاد محمد: رزق بن سلطان.

دعمت السلطة الحفصية هذا الصراع بعد عام 626هـ[4]، حينما تحصلت الكعوب ومرداس على قرار إثباتهم في ديوان العطاء مقابل الخدمات العسكرية مستقبلا ضد (الحملات الزيانية والمرينية)، القرار الذي اتخذه الخليفة المستنصر عقد الوضع أمام الدواودة، فسهول قسنطينة أصبحت أكثر صعوبة في ضل التحيز المجالي لبني سليم، مما اضطرّهم إلى التراجع نحو بادية زناتة، وتوقيع حلف مع المجموعات السليمية يقضي باستفادتهم من الأراضي الرعوية بضواحي قسنطينة مقابل ضريبة يؤدونها إلى إقليم توزر ونفطة وبلاد قسطيلية.

بعد هذا التاريخ سينتظم أولاد سباع ضمن حلف مع زناتة (بني توجين) في حدود الزاب عند ضفاف واد جدي (شدي)، مكنهم من العودة القوية ضمن الوحدات المقاتلة في جيش بني زيان، ضد الحلف الحفصي وقبائل السّدويكش(بني سليم وبقايا كتامة خصوصا)،واستعادة الزاب ووركلا وقصور ريغ[5].

يعدّ هذا التقدم أكبر إنتصار تحققه الدواودة في اتجاه جبل الأوراس وتطويق بعض الطرق التي ستسهل لهم اقتطاع مدن الحضنة: نقاوس، مقرة والمسيلة منها: الممر الرابط بين بوطالب وجبال ريغة. دون أن ننسى سيطرتهم على الطريق بين القلعة وبجاية، سمح لهم بالدخول كنخب وظيفية تتولى أدوار الوساطة والسّفارة واللجوء، ومهنة محصلّي الضرائب الرّسمية على كافة البلاد السّدويكشية[6].

---

[1] المصدر نفسه، ج6، ص45.

[2] المصدر نفسه، ص631.

[3] المصدر نفسه، ص97.

[4]George Marçais op-cit, p229.

[5] ابن خلدون، المصدر السابق، ص631.

[6] بلاد السّدويكش تعبر عن المجال السهلي الذي استحوذت عليه كنفدرالية السّدويكش، بين بجاية وقسنطينة، في مقال نشره الدكتور علاوة عمارة مؤخرا خاص بالتعمير والتحوّل الطّبونيمي في المجالات الكتامية، يشير من خلاله أن معنى هذا الإثنونيم يظهر مدى الإندماج والتعريب

4.إقليم الزاب والتبعية لبلاد رياح

1.4إقليم الزاب الهلالي:

سمحت الإقامة التي تلقاها ابن خلدون في منطقة الزيبان تحديدا: الدوسن، فرفر وبسكرة، بتكوين معطيات دقيقة، حول تشكل المفهوم الجغرافي للزاب الهلالي بفضل رحلته التي ألفت في فترة تاريخية معقدة تميزت بعدم الإستقرار السياسي، مع نص ابن خلدون نحن نتعامل مع ست مناطق ترجع كلها للزاب: الدوسن، طولقة، مليلي، بسكرة، تهودة وبادس، خصص لكل منها مفردات ارتبطت ارتباطا وثيقا بالتحركات الهلالية مشكلة مايسمى: ضواحي الزاب(مناطق الرعي)، مجالات الزاب(أراضي البدو)، والبادية(أراضي الرحل) كشهادة واضحة على تحوله إلى قطب للاستيطان المحلي[1].

لا يمكن إلغاء المراحل السابقة عن تواجد العنصر الهلالي: ذلك أن تقدّمهم إلى نواحي الزاب[2] اعتبرته فلول مغراوة وزناتة خطرا يهدد اقتصادهم الرعوي في المنطقة، الذي يرجع إلى تاريخ أسبق، أملته الظروف السياسية الناتجة عن الصراع الزناتي –الصنهاجي ودحر زناتة إلى منطقة منداس[3]، الجعبات، البطحاء مكونة مايسمى: بلاد

الحاصل بين بقايا الكتاميين والوافد العربي الجديد من أولاد سواق، بالرغم من وجود دراسة سابقة له من طرف vermondo Brugnatelli تذهب إلى نفس المنحى متناولة نفس الاثنونيميم لكن بالجنوب التونسي، ليس فقط المجال الجغرافي أكسب المنطقة أهميتها التاريخية، ولكن حتى تناولها تاريخيا، ظهور بلاد السّدويكش ارتبط بالنصوص المرينية والزيانية، لانجد لهم حضورا مع المتون التي أرخت للدولة الموحدية، أول إشارة نجدها عند ابن الحاج النميري(713-768هـ)، صاحب الرحلة العسكرية التي انطلقت أحداثها من فاس إلى بجاية، قسنطينة ومنها إلى بلاد الزاب، حسب الرحلة فإن البلاد السّدويكشية مقسمة إلى جزء شرقي وآخر غربي تجمعهم عاصمة بلاد بني سيلين، أما ابن خلدون، وهو الذي أفرد لهم جزءا في معرض حديثه عن قبيلة كتامة، فيظهر من خلال الوصف الذي قدمه لهم، أنهم أعراب يسكنون الخيام ويضعنون الإبل مع تربية البقر، تجمعهم مشيخة أولاد سواق التي انقسمت إلى أسرتين متنافستين: أولاد يوسف وأولاد علاوة الذين حكموا باسم السّدويكش طيلة الفترة الموحدية[6]، يمتّد مجالهم من أحواز خميس مكلاتة مشتملا الأراضي الواقعة ما بين قسنطينة وبجاية ،وتوسع إلى غاية جبل عياض في فترة السلطان الحفصي أبو يحى سنة 710 هـ، حينما تم دحر أولاد علاوة إلى نواحي المسيلة، للمزيد من المعلومات ينظر:

Alloua Amara, peuplement et arabisation au maghreb medievale l'exemple du pays kutama in, Alboran poblamiento e intercambios en has zonas costeras de Al-Andalus y el Maghreb , direction Billal Sarr.

Vermondo Brungnatelli, notes d'onomastique jerbienne et mozabite, universita di Milano-Bicocca, p31-32.

[1] Mohamed Meouak, les ziban entre Aurès et Sahara une géographie historique de Biskra et de ses oasis du moyen âge à la fin de l'époque moderne, academia Scientiarum Fenica, 2017, p140-142.

[2] يخضع الضبط المجالي لحدود الزاب حسب الدراسة المتخصصة لمحمد موّاق إلى: العامل المورفولوجي الذي يقسمه إلى ثلاث مناطق متباينة: الجبال، السفوح، والسهول، والعامل الهيدروليكي المتمثل في شبكة الأودية على غرار: واد بسكرة، واد جدي الذي ينبع من جبال العمور، للمزيد من التفاصيل ينظر، محمد مواق، المرجع السابق، ص70.

[3] موضع منداس في فترة عبد المؤمن بن علي هو بلد بني يلومي من زناتة وحلفائها من بني سنجاس، بني ورسفان وبني توجين، ينظر ابن

زناتة[1] وبلاد مغراوة[2].

اقتراب أولاد يعقوب إلى ضواحي الزاب، عجّلت بظهور حلف زناتي مكون من: بني يفرن، بني يلومي، مغراوة، بني عبد الواد، بني توجين، بني مرين وبني راشد، لم يصمد طويلا وسرعان ما تفكّك بعد وفاة أبو سعدة اليفرني سنة 1058، تاريخ مهم تم بعده تحول زناتة إلى مرحلة انتقالية يوقعها الحلف الاقتصادي الذي أعاد تنظيم الضواحي الزابية ورسم حدود مجالية جديدة لمناطق الرّعي، تقتضي أن يكون: جبل راشد، جبل العمور ومزاب حدودا فاصلة بين البدو الرحل الزناتيين والبدو الهلاليين.

5.تحركات الهلاليين وتاثيرها على أمن الطرق:

1.5نشاط ظاهرة الحرابة واللصوصية:

ازداد الاهتمام مؤخرا بهذا الموضوع، الذي سعى بعض المؤرخين إلى وضعه في سياق التاريخ الهامشي، دون النّظر إلى تدخل السلطة كشرط أساسي لإنشاء الإطار الاقتصادي، الذي يجب أن تحل فيه ملكية الأراضي الخاصة محل نظام الحيازة المنتظمة، تمثل الظاهرة أحد أوجه الفقر السريع للمجتمعات الرّيفية، وحجم الأزمة التي ظهرت خلال القرن الثامن الهجري، وتشكلت صورتها بشكل يكاد يكون كلي من خلال مختلف مدونات الفترة، خاصة منها النصوص الفقهية.

إذ حفلت بمختلف الفتاوى والنوازل التي رفعت إلى الفقهاء ووردت بصفة متواترة حول هجومات الأعراب على القرى، الدواوير و المجاشر، خاصة بأرياف تلمسان وبجاية، وتمحورت عمليات السرقة حول الماشية و مطامير القمح والشعير، وأحيانا تصل إلى حد هتك الحريم، ما يحيل إلى وجود أزمة معاشية، وتنظيم موّجه من طرف مجموعات معينة تستهدف القرى، هناك إشارات عديدة وردت في مدونة المازوني تثبت أن الهجومات كانت تستهدف حتى أراضي الفضاءات المرابطية، فممّا جاء في النازلة التي سئل عنها عبد الرحمن الوغليسي:" عن أقوام

عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تح، محمد ابراهيم الكتاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط1، 1985، ص19.

[1] ظهر مصطلح بلاد زناتة بدءا من الرواية المرينية وصاحبها ابن عذارى المراكشي، حينما عرض الأحداث التي أرخت لحملات أبي عبد الله الشيعي إلى بلاد الغرب لتعني بذلك الأراضي التي تضم جميع الجماعات المنشّقة عن طاعة السلطة الفاطمية، وأحيانا نجدها في معنى ما يسمّى بلاد البربر، أي بلاد تلمسان مملكة زنّاتة، ينظر ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب،تح، ج،س، كولان، ليفي بروفنسال، ج1، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط1، 2009، ص65-160. مع ابن خلدون، فهو مصطلح يعني التحيز المجالي الناتج عن تحركات زناتة وعلاقتها بالسلالات الحاكمة، عاصمتهم تلمسان، يحدها من جهة الشرق، بلاد صنهاجة من الجزائر، متيجة، والمدية، إلى غاية بجاية، جنوبا، بلد راشد، شمالا بلاد حصين، غربا مستغانم، شكل فيها وادي الشلف،الذي ينبع من الصحراء ووادي جدي الذي يمر بالزاب، مجالات حيوية لتحركات: مغراوة، بني يفرن، مديونة، مغيلة، كومية، مطغرة، ينظر ابن خلدون، تاريخ العبر، ج6، ص103.

[2] نفس الملاحظة تنسحب مع بلاد مغراوة، الذي يعني تحيزهم إلى ضواحي الشلف، الناتج عن تراجع القوى الموحدية، يضم الأراضي التي تم افتكاكها تحت إمارة بني خزر(بني ورسفان، بنو ونزمار) بالخصوص وهي: مازونة، التنس، برشك، عاصمتها الشلف، ينظر ابن خلدون، تاريخ العبر، ج7، ص94.

مرابطين غار عليهم أقوام من العرب فأخذوا ما بأيديهم من الماشية فشكوا إلى وليهم فحكم عليهم بقيمة المال وكان مع المرابطين المغار عليهم رجل من قبيل غير له في فرس"[1]

النازلة السابقة تضعنا أمام العديد من الأسئلة التي تُطرح حول هذا الموضوع طبعا وهي تتعلق بما ورد في النصوص الفقهية، التي يتضاعف عددها من خلال النوازل المتعلّقة بالسرقة وقطع الطريق، وهذا بحد ذاته إشكال إذ تترك الانطباع بهيمنة مسلكية النهب والعدوان على المجتمعات المحلية وتقلص مظاهر الأمن والسلم[2].

يبقى أهم تلك الأسئلة هو المتعلق بموقف السلطة المركزية والفقهاء من الظاهرة، لقد عزت سلطة الفقهاء سلوك الإغارة إلى غياب السلطنة وضعفها في مقابل تجذّر القوة القبلية، إذ صنف أصحاب الهجومات من خلال النوازل في خانة الأعراب المفسدين الذين تجب محاربتهم، واعتبروا مجالاتهم أراضي لا تنالها الأحكام الشرعية، لكن إذا تصفّحنا بقية المصادر وخاصة منها الخبرية، نجد السلطة حاضرة وطرف رئيسي في إدارة الجماعات الريفية، هذا يضعنا أمام الفتوى التي قدّمها الحفيد سيدي محمّد العقباني عن هؤلاء الأعراب المتغلبين على البلاد لضعف السلطنة أحيانا يكونوا خداما للسلطان وتارة يكونوا مخالفين على السلطان"[3].

إنّ سحب معايير الاحتراب فقط على التواجد الهلالي في المنطقة يؤسّس للأحكام المعيارية، فبالموازاة مع ظهور المغتصبات، واقتطاع المجال بالغلبة، من طرف شيوخ قبائل و عمال تعينهم السلطة كقواد وطن، سيزداد الأمر تعقيدا في تحالفهم مع السلطة لفرض الغرامات على أهل القرى أو البوادي، وأهل الصنائع والحرّاثين على نوعين:غرامة النقوذ وغرامة الزّرع وممّا ورد في هذا الخصوص، النازلة التي رفعت إلى الشيخ أبو زيد وأبو موسى بن الإمام:" عن سلطان ظالم أو عامله أو شيخ من قبيلة يفرض بفريضة على بلده أو على بعض رعيته من أهل قرية أو بادية أو على أهل صنعة أو الحرّاثين من غرامة نقوذ أو زرع أو تعيين خدمة أبناء أو غيره"[4].

يتمظهر الثنائي: الحرابة واللصوصية حتى مع بعض القبائل المحلية خاصة منها زناتة، لقد اعتبرت مجالات زناتة في نص المازوني من بين المواضيع التي أثارت النقاش الفقهي، خصوصا في جانبها العقاري وغلب عليها كذلك طابع البلد الذي لا تناله أحكام القاضي[5].

تعكس الظاهرة حجم الأزمة المعاشية التي تفرضها الاكراهات الطبيعية من جهة، والتّنافس المجالي أمام الهلالي، وفي ضل هشاشة التخطيط الاقتصادي تتحول إلى اقتصاد الكفاف وتأمين المعاش[6] الغير كاف، وكنتيجة طبيعية لهذه القيود يسيطّر الخوف ويتغلغل أكثر ليفصح عن قلق اجتماعي قوي ومتفشّي عبّرت عنه النازلة التي

---

[1] المازوني، المصدر السابق، ورقة رقم 68.

[2] مبروك الباهي، القبيلة في تونس في العهد الحديث (ق 16-ق 19) من بداوة الجمل إلى بداوة الخروف والحوز السباسب الوسطى مثالا، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، 2005، ص177.

[3] المازوني، المصدر السابق، ورقة رقم 117.

[4] المصدر نفسه، ورقة رقم 66.

[5] ينظر نص النازلة قي الورقة رقم 29.

[6] الطيب بياض، المخزن والضريبة والاستعمار، ضريبة الترتيب 1880-1915، افريقيا الشرق، المغرب، 2011، ص31.

رفعت إلى الشيخ أبو القاسم العقباني ونصها" عن أهل قرية جاءها الأعراب خيلا ورجالا فقاتلوهم بها يوما واحدا وكان بعض أهل القرية بنفسه وعياله فما كان من عشية يوم القتال طلب كبير البلد تمييز من بقي منها من الرجال المقاتلين فوجدهم قد يئسوا وشاع الخبر عن الأعراب أنهم يعودون لقتالهم من الغد فاشتد الخوف وفر من القرية نحو ثلاثين رجلا"[1].

يشكّل التكوين الجغرافي أحد مكونات بيئة قطاع الطرق، إذ يذكر الطابع الجبلي بانتظام لوصف مناطق الإغارة واللصوصية، إن الطبوغرافيا في هذه الحالة هي خدمة عظيمة لقطاع الطرق، نريد أن نتناول هنا نموذج موقع تكرر تاريخيا عدّة مرات كمجال حرابة، وهو الطريق الرابط بين سطيف وسور الغزلان، وبالتحديد عند موقع ثنية غنية الذي يخبرنا به ابن خلدون بين بوطالب وجبال ريغة، كمكان حركي لغارات أولاد سباع، إن إجراء عملية توقيع جغرافي، ستوضّح أن الثنيّة[2] والتي يعبّر عنها جغرافيا بالممّر بين جبلين هي موقع القصبات جنوب باتنة [3].

شكّلت هذه الغارات إحدى مصادر الثروة لدى شيوخ الدواودة من ناحية ومن ناحية أخرى سنجدهم هم أنفسهم يعملون على استعادة الأمن في المجالات المخترقة من طرف غارات القبائل البربرية بني ورسفان أو القبائل العربية من خلال ظهور ما يصطّلح عليه تاريخيا توبة الأعراب الهلاليين باندماجهم في مؤسسة الرباط، ودورهم الإجتماعي ومساهمتهم في تعمير مناطق كانت فيما مضى مجالات إغارة، إذ تتحالف السلطة معهم بمنحهم أراضي لزراعتها وغرسها وتقام حولها الأسواق الريفية والأسبوعية فتتحول إلى فضاءات محلية مأهولة وبخصوص هذا الإجراء وردت النازلة التي أجاب عنها أبو الفضل العقباني "عن موضع كان خاليا وهو في قارعة الطريق وكان القبائل السوّالون له لا يقطعون فيه على المساكين ويجلسون فيه للحرابة وأخذوا فيه ناسا كثيرا وأموالا ويعرف بذلك حتى لا يقدر واحد على جوازه ثم إن مرابطا من مرابطي العرب له جهد وقدرة نزل فيه وعمل فيه عمارة كبيرة لقطع تلك المفسدة فقطعها وصار الموضع المذكور حراثات وعمايز وبنو فيه سوق"[4].

2.5الحرابة واستمرار ثنائية البدو والحضر:

إنّ تقاطع الثنائي القبيلة والسلطة حول مراقبة المجال وتسييره قد ولّد مع مرور الوقت معارضة تحولت إلى عداء يتمظهر كلما وقعت المواجهة بين أحد الطرفين حول مجالات النفوذ، خصوصا مع ضآلة موارد العيش الرئيسية، وممّا غذى المعارضة أكثر هو طبيعة البيئة التي أُنتجت من خلالها، فالصدام الذي نجده حاضرا بصفة

---

[1] المازوني، المصدر السابق، ورقة رقم 21.

[2] هي آخر نقطة توقف فيها السلطان الزّياني أبي حمو في حركته إلى افريقية، إذ تقع بين جبل عياض والأوراس عند الطريق الجنوبي الذي يمر بتبسة، جبل عياض، الأوراس، الزاب ثم أريغ وورجلان، ينظر، يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج2، مطبعة فونطانة، الجزائر، 1910، ص23.

[3] للمزيد من المعلومات حول هذا الموقع ينظر :

A.L .Delattre, excursion dans le Zab occidental notes archéologiques et épigraphiques, in, Annales de l'institut d'études orientales, tom XV, année 1957, Alger, p265 .

[4] المصدر نفسه، ورقة رقم 141.

مضاعفة في مختلف مدونات الفترة الوسيطة تحكّمت فيه بيئتان، ثقافتان، واقتصادان مختلفان، طبعته النّصوص المالكية الأولى وتواصل في شكل خطاب معياري مع النقولات والمجاميع اللاحقة، وسيزداد الموقف إثراء مع خلدنة المعرفة التاريخية والاستعمارية.

من الجيّد التّنويه أن المعارضة بين الثنائية(البدو-الحضر) ستنتقل إلى المعارضة(الريف-المدينة أو الحاضرة)، (السهل والجبل)[1]، ومع تمركز الحضارة في الأمصار والرؤية المعيارية للمعرفة الفقهية والتاريخية، لطالما برزت هامشية العالم الريفي وحضوره الضئيل في المؤلفات المالكية الأولى مقارنة بالجوانب المتعلقة بالحياة الحضرية، لكن بدءا من منتصف القرن السادس هجري ومع الانتشار الواسع للمذهب المالكي في المناطق الريفية سيتم تطوير الرؤية الفقهية الحضرية الخاصة بالريف من خلال الممارسات الاجتماعية المحلّية(العرف-العادة)، أو عن طريق وضعية الأرض والسؤال الرئيسي حولها عما إذا تم الاستيلاء عليها قوة أو صلحا[2].

خضعت المعارضة بين العالم الريفي والحاضرة لنقاش إستوغرافي جد هام خصوصا مع أعمال Cristophe Piccard و Gabriel Martinez Gros [3] فكلاهما يؤكدان على هيمنة المعرفة التاريخية الاستعمارية من خلال مقدمة ابن خلدون والترجمة التي قدمها البارون دوسلان[4]، في هذا السياق يلمّح Gabriel Martinez Gros إلى التّفسير الخاطئ الذي وجه العمل المغاربي لفترة طويلة مرورا بالبدو سكان الريف بطريقة البدو الرّحل المدمّرين للحضارة القديمة، ولكن إذا كانت قراءة ابن خلدون تفرض بلا شك نظرية التماسك البدوي كمصدر لإعادة إحياء الدولة، فقد لفتت المعارضة بين البدو الرّحل وسكان الريف المستّقرين اهتمام المؤرخين ووضعها ضمن مخطط تطوري يعتمد على عدم الاستقرار لسلطات الإسلام وربط مصطلح البدو واقترانه

---

[1] أول من ناقش ظاهرة المعارضة بين الجبل والسهل هو Cristian Courtois كتفسير جغرافي لتمّوقع البربر والرومان، للمزيد من المعلومات حول الأطروحات المقدمة للنقاش في خصوص الموضوع ينظر:

Pilippe Leveau, l'opposition de la montagne et de plaine dans l'historiographie de l'Afrique du nord antique in, Annales de géographie T86, 1977.

[2] Alloua Amara, communautés rurales et pouvoirs urbains au Maghreb central(VII-XIV), revue du monde musulman et de la méditerranée n, 126, 2009, p188.

[3] أستاذ التاريخ الوسيط بجامعة نانتير بفرنسا، له العديد من المؤلفات الخاصة بتاريخ الأندلس وفلسفة ابن خلدون أهمها مايلي:

Ibn Khaldûn et les sept vies de l'Islam [archive], Sinbad, 2007.

L'Islam, l'islamisme et l'Occident, Paris, Le Seuil, 2013.

Brève Histoire des empires : Comment ils surgissent, comment ils s'effondrent, Le Seuil, 2014.

[4] بناءا على هذه الترجمة قدم المؤرخون الاستعماريون معرفتهم بشمال إفريقيا والعرب والبربر، وتم اعتبارها بمثابة نص استعماري جديد يخدم المعرفة الاستعمارية التي أصبحت تشكل في حقيقتها هويات مابعد الاستعمار لمزيد من المعلومات حول هذه الترجمة ينظر:

Abdelmajid Hannoum, translation and the colonial imaginary ibn khaldun orientalist forum on translation and historiography, history and theory, n42, 2003, p62-63.

مع فكرة غير المنضبط[1].

لقد وجد المستشرقون فكرة الحضارة جذابة للغاية لدى ابن خلدون، لاسيما التناقض الذي قدّمه بين الحضارة وحياة البدو الرحل والتي حددت الظروف التي قادت البدو إلى تشكيل سلالات حضرية، في الحقيقة أن هذا التناقض الذي يبرزه ابن خلدون إنما هدفه هو إظهار الاختلافات بينهم قبل التحول إلى النمط البدوي مع الزحف الهلالي ليصبح البدو وما يمثلونه من تهديد مستمر للحضر من خلال الغارات التي يشّنونها مساوون لكلمة العرب، ومع أن الاستخدام اللفظي لابن خلدون بشكل متقابل لكلمتي عربي-بدوي، إلا أنه لا يشير فقط إلى البدو بل يعني حتى المزارعين الذين يعيشون في قرى الريف[2]

6.الدواودة والمبادلات التجارية إلى بلاد السّدويكش:

1.6حماية الطرقات وتأمين المسافرين:

مع نهاية القرن7هـ وبداية القرن8هـ، ولدّت نهاية تدريجية لزناتة الرحل في الصحراء، في الواقع التغيّر الكبير الذي حصل في الدّورة الدولية للتجارة، وتحول مركزها ثقلها إلى البحر المتوسط[3]، تزامن معها تراجع بعض القبائل البدوية تدريجيا إلى زراعة الحبوب في الشمال.

التّوزيع الشمالي والجنوبي للمنتجات الأساسية (القمح، الزيت، التمور) يتبع ثلاث مناطق مختلفة بيئيا: السهل والتل في الشمال للحبوب والساحل والصحراء للتمور، هذا التقسيم يفرض ترابطا إقليميا يتّطلب وجود شبكات تبادل، فبعد التحولات الطبيعية التي رافقت الهلاليين وسمحت لهم بالانتقال إلى الحيازة المنتظمة للمجالات الزّابية والتّلية.

سيمكننا ربما التّخلص من الفوضى الهلالية التي يخبرنا عنها إيميل فيلكس غوتييه في ضل الأدوات الجديدة التي أنشأها الهلاليون، فالتحوّل إلى نمط الحياة المستقرة، رافقته سلسلة من الاضطرابات في إدارة وتنظيم المجال، تمثّلت بالأساس في نشاط بعض الفروع البربرية والهلالية في مجال الإغارة وقطع الطريق كما أشرنا من قبل، فإلى جانب

---

[1] Christophe Picard, les élites rurales du monde musulman méditerranéen les enjeux historiographiques, mélanges de l'école Française de Rome, 2012, p13.

[2] Elise Voguet, islamisation de l'intérieur du Maghreb, les fuqaha et les communautés rurales, revue des mondes musulmans et de la méditerranée, vol, 126, 2009, p148.

[3] ارتبط النقاش الخلدوني بالبحر الأبيض المتّوسط كمنطقة للتّنافس بين المسلمين والمسيحيّين، وغالبا ما استشهد المؤرخون الأوائل بتصريحات ابن خلدون حول صعود وسقوط التأثير الإسلامي، وتراجعه لصالح السّيطرة المسيحية في الحوض المتوسط بصفته عالما فرنسيا إفرنجيا رئيسيا، استغلت فرنسا النصوص الخلدونية في أعمال الجيل الأول من مدرسة الحوليات الفرنسية مع ظهور دراسة Demas Latteri، والرؤية القوية التي صاغها روبار برونشفيك حينما نشر العديد من الوثائق الأوربية التي لم يتداركها سابقه، والتي ستظهر صعود المدن التجارية في أوربا وعدم وجود جمهوريات تجارية في الإسلام، هذه المقارنة بأوربا ستبعث بفكرة انحطاط الإسلام ووضع شروط العلاقات في البحر الأبيض المتوسط للمزيد من المعلومات ينظر:

Ramzi Rouighi, Mediterranean relations for the medieval Maghreb historiography in question, Almasaq, 2017.

وظائفهم الاجتماعية على قارعة الطريق، يظهرون كذلك في مجال حماية الطرقات وتأمين المسافرين، فشهادة الإدريسي تقدم وصفا موجزا بخصوص آليات الحماية التي وظفها الهلاليون بين سكان مدينة بجاية وأريافها، إن التعايش يخدم الطرفين فمقابل حماية المنتجات والمزارعين وإقراض العبيد لأهل الضواحي وحراسة القطعان، يستفيد الدواودة من نقل المنتجات للمزارعين في الأسواق، وتوفير الحبوب التي سيحتاجونها طيلة العام عند عودتهم إلى المشاتي في الصحراء أي حين عودتهم إلى(بادية رياح).

وهنا يبرز دورهم كمشاركين نشطين في الحياة الاقتصادية، لقد أعيد تنشيط الواجهة الساحلية لبعض المدن البحرية على غرار مرسى الخرز، وبعض الدواخل، إذ سيتم تطوير نظام: السوق-المدينة من خلال انتشار المنازل(أماكن اللجوء والحماية) والحصون على طول الطريق الرابط بين القلعة وبجاية حسب الوصف المقدم من طرف الإدريسي: سوق الأحد، حصن تيكلات، سوق الخميس، حصن وارقو، حصن الناظور، سوق الخميس وبه المنزل، حصن تافلكانت، حصن تاركا وحص القلعة سوق الاثنين، سوق بني زندوي[1].

2.6السوق القبلية الريفية، تجسيد للأمن وخدمة للتبادل التجاري:

ظهور المدينة-السوق يعكس فاعلية السوق القبلية الريفية في هذه الفترة، في كونه نقطة جذب شعبية مهمة، وعنصر هيكلي للاقتصاد المحلي، أين يتم تداول المنتجات اليومية والحرف الريفية، كما يعكس التفاعل الاجتماعي الذي تكوّن مع مرور الوقت بين العنصر الرّياحي والقبائل المحلية التي تنحدر من المناطق الجبليّة للسوق بغرض البيع أو الشراء، أو البحث عن فرص العمل في الحقول السهلية حينما تأتي مواسم الحصاد، لعل هذا يذكرنا بالأبحاث التي أجراها الجغرافي الفرنسي Cote Marc في الجزائر حول المناطق الريفية وكتب في هذا الشأن:"السوق مؤسسة أساسية في العالم الريفي، إنه مكان للتبادلات الاقتصادية، كما أنه مكان للقاءات الإنسان بامتياز"[2].

المكان الذي تمّ اختياره لإقامة السوق الريفية في البلاد الخلفية لمدينة بجاية، من شأنه تسهيل التواصل وفكّ الخناق بين المنطقة البحرية ومجالاتها الريفية، التي يظهر من خلال طابعها الجغرافي الجبلي، أنها تعتمد بشكل رئيسي على المنتجات الزراعية والحرف وبيع الماشية، في هذه المناطق التي يصعب الوصول إليها، يعمل السكان في أراضيهم مع تربية الماشية الصغيرة والحفاظ على الحرف المنزلية وبالتالي فإن المنتجات الأساسية من: الزّيتون، زيت الزيتون، التين، الخضار، الحليب لا تلبّي جميع الاحتياجات، خاصة خلال فصول الشتاء الثّلجية، أين تكون في أغلب الأحيان الحرف اليدوية هي موضوع المقايضة والتّسويق مع مدن الهضاب العليا والمناطق السهلية بإقليم الحضنة التي أصبحت في قبضة الدواودة الهلاليين [3].

أتاح هذا التحوّل الكبير نحو السوق الريفية ونشاطها المتزايد، إخلاء الإنتاج المحلي وخاصة الزّراعي منه، والذي يشكّل مصدرا إضافيا لدخل الأسرة، كما يسمح للتجار بفضل تنقلاتهم المستمرة بين الأسواق من تسويق

---

[1] الشريف الإدريسي، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ليدن، ص93.

[2] Cote Marc, l'Algérie ou l'espace retournée, édit Media-plus, Constantine, 1993, p68.

[3] Adolphe Hanoteau, Aristide Horace Letourneau, la Kabylie et les coutumes kabyles, imprimerie nationale, Paris, 1937, p412 .

بضائعهم، وتسهيل عملية التواصل بين الأفراد ونشر الثقافات المحلية والمحافظة عليها، من خلال التبادل الذي يحدث نتيجة النشاط الغير محدود مابين الجبليين وسكان السهول، والدخول في علاقات تبادلية[1].

لقد تطوّرت علاقات الدوّاودة بالمستقرين إلى تكامل اقتصادي جعلهم يعتمدون على بعضهم البعض، يقدم أولاد رياح الماشية ومختلف المنتجات التي تضمنها لهم الرحلات الفصلية، فالجفاف يجعل الحياة صعبة في الصحراء، ما يضطرهم للذهاب إلى مناطق ذات مراعي جيّدة وهي عادة ما تكون أقرب إلى البحر، عند سهول قسنطينة والبلاد الخلفية لمدينة بوجي، وعندما تسقط أمطار الخريف يتوجهون إلى صحرائهم حيث يتّم استبدال الحبوب التي جمعوها من التل بالمنتجات الجنوبية، بين هذين النزوحين شتاءا وصيفا تجري هجرات ثانوية ورحلات إلى المحطات الوسيطية في الخريف والربيع بين بلاد رياح وباديتها.

يتقاسم أولاد رياح مع الفلاحين روابط ذات أهمية اقتصادية تتمثل في توفير الحماية ضد غارات القبائل البدوية المعادية،وبناءا على هذا التحوّل، سيعاد تنظيم بعض الفتاوى من طرف ابن عرفة والخاصة بمرافقة القوافل التجارية خاصة بين تونس وقسنطينة مقابل راتب ثابت[2]، في مقابل الرعاية الجيدة التي من المفترض أن يقدموها للقافلة[3].

7.الدواودة وإقليم الزاب، نحو استعادة الأمن ونشاط الخفارة:

يبدو الأمر أكثر تعقيدا فيما يخص تحركات البدو الرحل، لأننا في هذه الحالة نتعامل مع فئتين لكل منهما نمط رعوي، فئة المحلي (زناتة وفروعها)، والوافد الجديد (العنصر الهلالي)، في ضل عدم وجود تنظيم زراعي وإقتصادي قوي، وفي سياق بيئي ومناخي صعب (الصحراء، المناطق القاحلة وشبه القاحلة)، لطالما اعتمد نظام البدو التقليدي على قواعد وأعراف تتعلق باستخدام المراعي، فترسيم الحدود الرعوية يخضع لعامل التحالفات، المفاوضات، والاتفاقات المتبادلة، أو النزاعات بالغلبة[4].

لا تخلو النصوص التاريخية والمدونة الفقهية، في الفترة الوسيطة عن مضامين التحوّل المجالي، الذي نجده حاضرا من خلال مصطلح(وطن)، (بلد)، وبنسبته إلى مجموعات إثنية، فهي تكشف الاعتراف بحقيقة الحيازة، أو السلطة التي تمارسها المجموعة داخل منطقة ما على أساس الفائدة الجبائية، ستتكوّن لنا تدريجيا بلاد زناتة وتخومها، لتنطبق مع أراضي مصعب ما بين إفريقية وصحراء المغرب الأوسط، إذ تظهر بدايات تشكلها مع الفترة الموّحدية، ودورهم الهام في اندحار مجموعة (أولاد جانا) نحو الغرب، باحتواء مشيخة بني ومانو واستغلال ولائها في الصراع

---

[1] Henri, opcit, p40.

[2] ترد في المدّونة الفقهية بالغفارة، وفتوى ابن عرفة الخاصة بمرابطي افريقية أعاد جمعها ابن خنتاش، ينظر، مؤلفه، نهاية المرام في تيسير مطالعة الأحكام، دار ابن حزم، الدار البيضاء، ط1، 2011، ص250.

[3] Elise Voguet, chefs des tribus et murabitun des élites rurales du Maghreb médiéval, mélanges de l'école française de Rom 2012, p379.

[4] Frédéric Sandron, l'immobilité forcie, la sédentarisation des nomades dans le sud tunisien, p69.

ضد قبيلة لمتونة ومشيخة بني يلومي، ليعطي في الأخير تجزئة زناتة إلى أسرتين متنافستين وجلاء بني يلومي وبني توجين إلى منداس وبني ومانو إلى جبل سيرات[1].بالمقابل تمكن عبد المؤمن بن علي من إدارة التحركات الزناتية(بني يلومي) وقمع غارات بني ومانو في تلول منداس باصطناع وحدات محاربة: بني بادين، ومغراوة وإلحاقها بالجهاز الموّحدي لفائدة الغارات ضد لمتونة[2].

في ضل التفكك والضعف الذي طال قبائل زناتة، وما رافقه من تحيّزات مجالية للهلاليين: وطن رياح (ضواحي قسنطينة وبجاية، الزاب، الريغ ووراجلان)، وطن بني يزيد(أرض حمزة)، وطن سويد(قلعة سلامة، منداس والونشريس)، ستنتج مجموعة من العلاقات التبادلة لحماية أرياف المغرب الأوسط في ضل استمرارية الحرابة لبعض المجموعات الضعيفة أو التي واصلت حياة الترحال: بني سنجاس، وبنو ورسفان من البربر وبعض الفروع الرّياحية عرب الأخضر خصوصا.

أمام تنامي هذه الظاهرة التي تشهد أعلى مستوياتها بعام 767هـ، أمام تراجع زناتة عن حماية أوطانها سيدخل الدواودة إلى شبكة التحالفات لحماية بادية رياح، التي شملت: كرفة، وعامر عن طريق وظيفة الخفر[3].

1.7ظهور وظائف الخفر:

قاد الصّراع المجالي الرياحي ضد تحالف السلطة الزيانية مع بني عامر وزغبة حول تلول تلمسان، إلى ضعف زناتة في حماية المراعي المتواجدة في قبلة المغرب الأوسط، وتراجع نفوذها لصالح ونزمار بن عريف شيخ بني سويد في بسط سلطته، بعد أن أقطعه السلطان المريني أبوعنان إقليم السّرسو وقلعة ابن سلامة، سيتوّج في نهاية عام 767هـ، بانتصار سويد وتقدمها إلى جهات تلمسان ومازونة[4].

في نفس المسار سيتمكن يوسف بن مهدي من اقتطاع بلد البطحاء(قلعة هوارة)[5]، وبلد سيرات في فترة السلطان الزياني يغمراس، الذي منح جماعة العطاف من سويد اقطاعا آخر في شكل وظيفة جبائية على جبل دراك بالشلف، راسما بذلك حدودا فاصلة بينهم وبين وطن سويد بالونشريس، ساهمت هذه الظروف السياسية وسياقاتها التاريخية في بروز ظاهرة الضغط المجالي بتحوّل معظم الفروع الهلالية إلى مرتبة قبيلة–ديوان بغض النظر عن الشكل الذي اتخذه تحولهم وفي الوقت ذاته، تحمل علامات التحذير لجموع زناتة بعد فقدان مجالتهم التي عوضها حضور المشيخات الهلالية كممثل وفي أكثر الأحيان شرعي عن السلطة المركزية.

---

[1] السّلاوي، الإستقصا لأخبار المغرب الأقصى، ص94.

[2] المصدر نفسه، ص95.

[3] ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص64.

[4] المصدر نفسه، ج6، ص64.

[5] يعود توّطن هوارة ببلاد زنّاتة إلى فترة ما بعد الفتوحات، أين استقروا بالجبل المطل على البطحاء(جبل هوارة) مع مسراتة، أحد أسباب هذه الهجرة تتمثل في تفكك هوارة واستهلاكها في حركة الخوارج، والدحر المجالي لزناتة خاصة بني يلومي إلى نواحي المغرب الأقصى، على أن هذا الانتشار يشمل بني اسحاق وبني عبد العزيز الذين ربطوا علاقات متينة مع أمراء بني حماد وتمكنوا من بناء القلعة المنسوبة لهم، ينظر، ابن خلدون، تاريخ العبر، ج7، ص145.

عودة زناتة إلى نواحي تيهرت وسيطرتها على الطريق الرابط بين تلمسان وتيهرت بتوظيف الوحدات المحاربة لبني ورسفان، سهل من إقامة علاقات مع السلطة لكن هذه المرّة ستكون بناءا على المراقبة المحلية والجّهوية للطرق والممرات، التي شغلتها لمدة تقارب القرنين من الزمن منذ فترة الخليفة المنصور عند أول إشارة لمعرفتهم بهذا المسلك بدءا من سنة 584هـ[1].

سيكون من الضروري التّذكير بأن استقرار الدواودة في إقليم الزاب كان في السابق مساحة هجرتها زناتة، يشير carette، أنّ حوض الفيض في الحدود الشرقية لواحات الزيبان، وفي مدينة خنقة سيدي ناجي متزال هناك أسماء مواقعية لسدراتة[2]، التي يوّقع ابن خلدون أول إشارة لهم في حدود بدايات القرن الرابع هجري، عند واحات بنطيوس، نفس الوضعية تنسحب مع جبل مغراوة الذي يتموضع في الطريق الرابط من بسكرة إلى امدوكال[3].

لا يبدو أن النصوص المالكية من شأنها رسم صورة واضحة عن بوادي الزاب، تبدو الصورة أكثر وضوحا في إجتياز النصوص الوهبية التي رسمت المشهد القبلي للجماعات الإباضية، في معاقلهم التي انحصروا إليها في إطار الضّغط المجالي لزناتة والهلاليين، وهي لا تخلو من مشاهد الإغارة وقطع الطريق على بادية مصعب وأسوف[4] اختزلت في الأحكام المتعلقة بأموال الريبة ونهي الشيوخ العزاب عن التعامل مع ثلاثة قبائل من البربر: بنو غمرة، بنو ورسفان، وبنو سّنجاس لقطعهم الطريق[5].

في سياق هذا التطور، ارتبط أمن الطريق بإدارة الجماعات المتمركزة في أعلى الهرم، في فضاءات محلية تنتشر في البلاد الخلفية للمدن(مجال تحت مراقبة السلطة)، ربما البقاء داخل دائرة النص الخلدوني الذي يبدو أكثر متابعة للبدو من بقية الجماعات المستّقرة بشهادته الشخصية حينما صرح في الفصل الذي أفرده لقبائل زناتة بالقول:"ولم يصل إلينا بعد ملكهم إلا الشارد القليل يتبعه المؤرخ المضطلع في مسالكه"[6]، فهو لم يكن صريحا بما فيه الكفاية أمام أعمال العنف التي طالت البربر وخصوصا اللّواتة منهم في واحات فرفر من طرف مشيخة أولاد يعقوب، وارتباطها بالظروف السياسية التي تمليها توسعات المركز، على غرار الحملة المرينية ومارافقها من إزالة للإقطاعات الحضرية وشبكة القصور التابعة لهم من طرف أبو الحسن المريني سنة 748هـ، ورجوعهم مرة أخرى لعمليات الإغارة واستيلائهم على المراعي التي كانت تابعة للسلطان[7].

---

[1] ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص197.

[2] Carette, recherches sur l'origine et les migrations des principales tribus de l'Algérie, imprimerie impériale, 1853,p276.

[3] Ibid., p161.

[4] للمزيد من المعلومات حول جغرافية المنطقة ينظر كل من:

Georges Rolland, la conquête du désert, Biskra, Tougourt, l'oued Rir.

V.Almand, D'Alger à Wargla.

[5] الوّسياني، السير، تح، عمر بن لقمان حمو سليمان بوعصبانة، ج2، ط1، 2009، ص685.

[6] ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص81.

[7] الزّركشي، تح، محمد ناظور، ط2، 1966، 83.

رسمت تحركات الدواودة ترسيم الأراضي الرعوية بين زناتة وفروعها الناجعة، لكن ألا يجب التفكير في الأوقات غير المتكافئة، في الشتاء أو الربيع، أو الصيف، وهطول الأمطار السنوي، عالجت اتفاقيات الدواودة هذه المخالفات من خلال نسج شبكة هائلة من المواثيق الرعوية، في سياق التحركات مع زناتة عند ضفاف وادي جدي من جهة، و من جهة أخرى مع أولاد نابت من كرفة الذين توّطنو بادس وتنومة قاعدة الزاب الشرقي، وبقيت بعض فرقها تنتجع إلى تخوم الزاب وبالمثل ضمنت استفادة: عرب الأخضر من بادية رياح بمراعيهم، إذ سيكون يعقوب بن علي منوطا بحماية ضواحيه أو باديته من الغارات[1].

باستثناء مصادر الرزق الرعوية، تم الدفع بالدواودة إلى شبكة المبادلات التجارية التي توزعت عبر محورين: المحور الشمالي مع بلاد التل أو (السّدويكش) والمحور الجنوبي مع بلاد السودان، عبر أريغ ووارجلان[2]، في هذا السّياق تم استحداث تنظيم الخفر أو الغفر الذي يرافق عرب الأخضر من بني رياح في رحلاتهم إلى تلول منداس، وستكون تحت الإشراف المباشر ليعسوب الدواودة يعقوب بن علي، ومذكرات ابن خلدون، تحدّثنا عن مرافقته الشخصية سنة 780هـ، من منداس إلى الدوسن بأطراف الزاب مع حاشيته[3].أو خفيرهم للسلطان الزياني أبي حمو لما عزم على المسير إلى بلاد رياح ومرافقته إلى تبسة ثم مسكيانة[4]

بالموازاة تسعى السلطة كذلك إلى إدارة تنظيم الخفر والدخول كشريك هام إلى جانب المشيخات الهلالية، على هذا الأساس تمّ اصطناع مشيخات منهم وإلحاقهم بالجهاز الإداري من خلال تعيينهم كقائد(وطن، بلد)، ومن ثمّة منحهم السلطة الجبائية والضريبية[5]، لم يكن إقليم الزاب، بعيدا عن هذا الإجراء، فلقد تم تكليف منصور ابن مزني بإدارة الضرائب مع مراقبة الإيصالات والنفقات وامتداد منطقته الإضافية إلى غاية بلد عياض والسّدويكش.

أو من خلال منح الأرض لفضاءات مُرابطية، سرعان ما تتحوّل إلى فضاءات للتداول التجاري عند تأسيس الزّوايا وانتشار الحراثات والعماير وبعدها خلق الأسواق، وهذا ما ظهر مع حركة سعادة الرياحي[6] التي

---

[1] ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص47.

[2] يأتي الإهتمام بتاريخ هذه المنطقة متأخرا مقارنة ببعض الحواضر على غرار قسنطينة، بدأ في حدود سنوات 1850، مع رحلة السيد M.Renaud إلى غاية توات، وأخرى ل M.Berbrugger إلى تقرت، لتبدأ الفترة الثانية من الإستطلاعات في حدود عام 1858، توقعها الاكتشافات الطويلة لHenri Duveyrier، واعمال الحفر في واد سوف ووادي ريغ تحت إشراف الجنرال Desvaux، حول التّصريحات الخاصة بأهداف الاكتشافات ينظر:

L'année géographique, revue annuelle des voyages de terre et de mer ainsi que des explorations, missions, relations et publications diverses relatives au sciences géographiques et ethnographiques, année 1863, p109.

[3] ابن خلدون، رحلة ابن خلدون، ص188.

[4] مجهول، زهر البستان في دولة بني زيان، تح، بوزياني الدراجي، ج2، مؤسسة بوزياني للنشر والتوزيع، ص21.

[5] Elise voguet, Op.cit., p377.

[6] للمزيد من المعلومات حول الحركة وسياقات ظهورها ينظر:

ضمت شيخ أولاد عساكر، وحسن بن سلامة من أولاد سباع، وشخصيات مختلفة من قبائل زغبة والعطاف وبنو يزيد، وربما العديد من الفلاحين العرب المستقرين[1] لإيقاف عمليات السطو واستعادة الأمن في فضاءات المرابط، بعد هذه الحركة سيرتبط أولاد محمد بإدارة الزاب مع ابن مزني الذي وضّفهم في الزاب الشرقي[2] لضمان عودة الضرائب ومنع هجمات اللصوص.

2.7الاستقرار في إقليم الزاب وظهور شبكة القصور:

يخبرنا ابن خلدون (سفير الدواودة) إن أمكن لنا القول، عن مدى تحكم أولاد سباع في بسكرة، وتكوينهم لثروات وصلت إلى حد الحصول على أراضي الزاب الغربي بعقد شراء، العودة بسنوات إلى الوراء وتحديدا إلى فترة الرحلة النميرية سنكتشف أن هذا النفوذ استغرق مدة طويلة، كانت بدايته مع تطويق الطرق والمسالك المهمة، قبل التحول إلى سادة النخب الوظيفية والإدارة المركزية، الرحلة صرحت بأن أهداف الحركة المرينية إلى البلاد الزابية هو إزالة ضرائب أولاد سباع ورفع خفارتهم عن البلاد السّدويكشية.

من جانب آخر تظهر هذه المذكرات التي دونها ابن الحاج في رحلته، كامل النفوذ المجالي الذي كسبته الأسرة من خلال الإتاوات الريعية على بربر لوّاتة[3]، فإلقاء نظرة موجزة على المحطات التي نزلها أبو عنان وجيشه في أخذ الرهائن منهم في حركة محلته، دليل كاف على شبكة العلاقات التي كونها أولاد يعقوب بن علي وأسرته إلى جانب عناصر أخرى دخلت المنطقة بناءا على الأعراف التي تمليها الأحلاف العسكرية(نموذج كرفة)، أي قارئ للرحلة سينتبه إلى التدرج في تنظيم المجال وتأطيره من طرف شيوخ الأسرة، إن تتبعنا للأوصاف التي قدمها ابن الحاج النميري للقصور والمنشآت التابعة للدواودة، يمكن القول أن هناك مراعاة لثلاث محفزات ساهمت في تمركز الهلاليين حول هذه المناطق: المحفّز السياسي أولا المتمثل في صدامهم مع السلطة الحفصية، المحفّز الاقتصادي الذي يبدو من خلال مراعاة الدورة التجارية في تداول المحاصيل، والترحيل الدائم للمراعي واختراق طريق القوافل.

بالإضافة إلى المحفّز الجغرافي الذي يشكل حلبة صراع بين مجموعة من الفاعلين والمتدخلين، وهو ما يساهم في خلق تحولات عميقة على مستوى الأنشطة والإستغلال وعمليات التهيئة[4]، وهو ما دفع بالهلاليين لإختيار المنطقة الممتدة من لميس، بادنة، القنطرة، الوطاية، بسكرة، طولقة، فرفر، نقاوس وأخيرا زراية للتوطن، متبعين في ذلك الأوصاف التي قدمها ابن الحاج النميري في رحلته حسب ترتيب المناطق التي نزلها أبو عنان وكانت البداية

Salah Alouani, tribus et Marabouts A'rab et walaya dans l'intérieur de l'ifriqiya entre le VI /et le XVIII siècles, introduction, Pierre Guichard, Academia scientarum Fennica, Finlande 2010, p146.

[1] George Marçais,opcit, p649.

[2] ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص47.

[3] ابن الحاج النميري، فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1990، بيروت-لبنان، ص415.

[4] زكريا أجنيخات، المدينة والبادية تكامل أم صراع، مجلة التخطيط العمراني والمجالي، العدد الأول، المركز الديمقراطي العربي-ألمانيا برلين-، 2019، ص108.

من:

1.2.7قصر عثمان بن علي بن أحمد الرياحي، إذ ورد في الرحلة أنه مربع الشكل مبني بالحجر المنجور من مخلفات مدينة لميس الرومانية، له سور دفاعي وخمسة أبراج، يحتوي القصر على ديار متسعة ومتساوية، منها دار عثمان بن أحمد الرّياحي المربعة الشكل التي بنيت من مادة الرخام، وتحيط بالقصر بساتين وجنان، أوسعها التي اختص بها عثمان بن علي الرياحي[1].

طبعا وجود القصر الصحراوي من خلال هذا الوصف ليس بظاهرة جديدة، في بيئة تتميز بقيود مناخية صعبة تتطلب قدرات ابتكارية اجتماعية للتكيف معها، فالمستوطنات الهلالية من هذه الناحية تعتبر استمرارية لموروث إباضي سابق في المنطقة، لقد عولجت مسألة العمارة الصحراوية من طرف العديد من الباحثين بدءا بطابع الرحلات الإستكشافية للبعثات الفرنسية التي مثلها Henry Duveyrier [2] واستمرت مع Nadir [3] Marouf و Said Belguidoum [4]، وهي كلها توضح كيفية واستمرارية تأهيل المساحات الواحية من قبل الجماعات المتعاقبة عبر ظروف وفترات مختلفة، ويعتبر القصر أحد أهّم أشكال التهيّئة من بينها تلك التي أنشأها الهلاليون، إذ يعتبر قصر عثمان بن علي القطب المهيمن على بقية القصور المتواجدة بالمنطقة، يعتبر القصر مركز تجارة الدواودة، ونقطة عبورهم النّشطة، ودلالة أهميته وجود السور الذي يساهم في حماية قدسيّة وحرمة الدور التي بداخله، وكذا المجال الجغرافي المحيط به، من الهجومات والاعتداءات الخارجية ما يمكننا من القول أن المعيار الذي خضع له بناء القصر هو التواصل والقطيعة مع الأحواز.

أما الأبراج المتوزعة عبر زوايا القصر فإن تشييدها يظهر أنه مهيكل بطريقة دفاعية على المستوى المحلي لحماية المنطقة التي أصبحت تابعة للدواودة، وفي خصوص جنات النخيل التي أحاطت بالقصر فإن تواجدها يعني الاختيار الإستراتيجي للتجمع الهلالي في احتلال الواحات، حيث تتدفق الوديان عبر الأراضي المنحدرة في الزاب، إذ تعتبر هذه الموارد الهيدروليكية الضامن الرئيسي لاستمرار ظاهرة الاستقرار الهلالي في إقليم الزاب[5].

كما تدّل بساتين النّخيل على الصلة القوية للهلاليين ورغبتهم القوية في الانتماء للقصر، وتأثرهم بنموذج

---

[1] ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص413-414.

[2] الكتابات التي قدّمها تندرج ضمن إطار البعثات السفرية بمساعدة سكان الطوارق، هدف فرنسا من هذه البعثات هو إعادة بعث الروح التّجارية التي كانت سائدة إلى بلاد السودان وتوجيهها لصالحها، للمزيد من المعلومات حول الأوصاف التي قدمها حول كل من: القنطرة، بسكرة، الوطاية، أوماش، وإلى غاية مدن المزاب ينظر مؤلفه:

Henry Duveyrier, voyage dans le pays des Beni Mezab, Paris, 1861.

[3] بعنوان:

Lecture de l'espace oasienne, la Bibliothèque arabe de Sind Bad, 1980.

[4] بعنوان:

Urbanisation et urbanité au Sahara, in Méditerranée n 3.4, année 2002.

[5] Samira Haoui, terre pierre et bois dans l'architecture vernaculaire des Aurès et des Ziban des matériaux à usage, p524.

عمارة القصور، وتطوير أنظمة الري التي سمحت لهم باستغلال الأرض لزراعة النخيل، طبعا باعتباره العنصر الحيوي في بناء المستوطنات في الجنوب، حيث تحتل مكانة خاصة وتلعب دور منظم حراري من خلال خلق مناخ صغير محيط بالقصر قادر على مواجهة الطقس الحار.

2.2.7**قصر سعيد بن موسى بن أحمد الرياحي**: المحطة الثانية في تحرك محلة السلطان المريني هي التوجه إلى تيحمامين التي يبدو من خلال الوصف أنها ذات طابع جبلي تتميز بنمط العمارة القلاعية التي يسكنها العامة من الهلاليين، ثم عرج إلى قصر بادنة الذي أنشأ للادخار، هذا يذكرنا بالفرضيات التي طرحها الباحث محمد مواق المنتمي لجامعة قادس بإسبانيا، حول تطور مصطلح القصر ودلالاته حسب الغايات والأهداف من استخدام المجال، إذ تبدو أوصاف ابن الحاج بخصوص هذا القصر أنها تنطبق مع الفرضية الثالثة، فيبدو أن قصر سعيد بن موسى بن أحمد الرّياحي هو عبارة عن قرية محصنة لأجل حماية أنفسهم من هجمات البدو، يتكون من غرف والتي تستخدم لتخزين المواد الغذائية تحسبا لسنوات الجفاف أو مداهمة القبائل البدوية أو هجمات جيوش السلطة[1].

3.2.7قصر علي بن الحكيم الرياحي: هو صهر يعقوب بن علي الرّياحي تم إنشاء القصر على ضفاف وادي القنطرة، نحن الآن تبعا للأوصاف في منطقة القنطرة (Calceus Herculis)، في الفترة الرومانية، تثبت الاكتشافات التي تحققت في هذا الميدان تبعية المنطقة للفضاء الروماني كونها تقع في الطريق الرابط بين الأوراس والصحراء[2]، وباحتوائها على العديد من الآثار الرومانية والعملات البرونزية[3]، هو قصر منيع له أبراج شيّد

كمستودع للذخيرة، تحيط به بساتين النخيل والمزارع والمراعي التي أصطلح عليها بأحواز القنطرة، وتنتهي بمنزل القنطرة[4]، إلى هنا تنتهي شبكة القصور، بمعنى آخر تمثل الأراضي الممتدة من تيحمامين إلى غاية أحواز القنطرة، والتي تمر عبر لميس وبادنة، مجال تم تأهيله وفقا للتسلسل الهرمي الاجتماعي في كونه ضم قصور سكنى أهم شيوخ أسرة الدواودة

4.2.7انتشار شبكة الحصون ووظيفتها: لندخل فيما يلي وتبعا لأوصاف مذكرات ابن الحاج في تأطير آخر للمجال يشمل الأراضي الواقعة من الوطاية إلى فرفر وطولقة وهي مناطق زراعية تتميز بانتشار مجموعة من الحصون أهمها:

---

[1] Mohamed Meouak, les Ziban entre Aurès et Sahara une géographie historique de Biskra et de ses oasis du moyen age à la fin de l'époque moderne, Academia Scientiarum Fennica, 2017, p334.

[2] Pierre Morizot, les voies romaines de l'embèse à Calceus Herculis(El-Kantara Algérie) note de synthèse in, Antiquités Africaines n 34, 1998, p149.

[3] Stéphane Gsell, Atlas Archéologique de l'Algérie, Paris, 1911, Feuille n 37 El-Kantara, p4.

[4] ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص422-424.

حصن الحديد: التابع ليعقوب بن علي الرياحي، وصفه ابن الحاج بعبارة:" كان قرة عين ليعقوب بن علي وأعظم ذخر ومنه كانت أقواته المرغدة"[1]، الوصف يحيل إلى وجود مجتمع ريفي على معرفة جادة بكيفية تحويل المنطقة إلى فضاء محلي مأهول من خلال عبارة "وأقام به جراية المياه"، كما يتضمن أبراج وضعت لحماية المدخرات الزراعية من عمليات النهب، تمركز هذا المكان المحصن يؤكد نشاطه من أجل جمع السكان المحليين والدفاع عنهم، كما أنه يثبت الاستقلالية التي تميزت بها أسرة الدواودة في مواجهة السلطة السياسية، التي غالبا ما تكون حاضرة أو حتى غائبة.

بالإضافة إلى حصن فلق: الذي تم بناؤه بأسوار عالية يحتوي على دور مقسمة بطريقة سباعية يستقر بها خدام الدواودة، وكذا حصن فرفر الذي نسب إلى يعقوب بن علي وجماعة أولاد محمد[2]، شيد خصيصا ليضم الساكنة وقت الأزمات تحيط به بساتين نخيل وأبراج وأسوار، ما يحيل إلى وجود سلطة إقليمية تمارسها مشيخة الدواودة إلى جانب الجماعات الهلالية على القرى المحيطة، التي تتميز بتمركز الأنشطة الإقتصادية والتجارية، أتاحت وظيفة تأهيل الفضاء الزابي من قبل الجماعات الهلالية تموقعهم كقوة اقتصادية تهيمن على عائدات التجارة بالإضافة إلى محاصيل التمور، والقوة السياسية من خلال إدارة شبكة القصور وتسيير العلاقات مع بدو زناتة.

5.2.7قصبة طولقة: بالنسبة لطولقة فقد كانت تابعة لعبد الرحمن الطولقي[3] عامل أبو يعقوب يوسف بن منصور ابن الفضل ابن المزني، الذي قدم ولاءه للسلطلة المرينية، يوجد بطولقة مسجد، ولها قصبة منيعة وحولها دور قائمة، يحيل مصطلح القصبة إلى تواجد المركز الحضري، مجال تابع للسلطة مع احترام الأسس الدينية المتمثلة في تواجد المسجد[4]، تشير قصبة طولقة إلى مركز إدارة بني مزني، خصوصا إذا علمنا أن هذه الفترة أي القرن 8هـ، تميزت بالاضطرابات السياسية، قبل أن تتحول المنطقة لاحقا إلى مركز نشاط المرابط السني سعادة الرّياحي الذي بنى فيها زاويته المشهورة.

لتبقى المنطقة الممتدة من أمدوكال إلى غاية زراية، والتي تضمنت أيضا نقاوس حسب الرحلة النميرية، شاهدة على العلاقة التي تجمع العنصر المحلي والوافد الهلالي، حيث توّجه جيش أبو عنان للقضاء على الفوضى التي يحدثها الغائرون، حيث كانت تشن غارات السرقة بهذه المناطق، إذ جاء في الوصف أنها:" الثنايا التي يشرف منها سراق العربان"[5]. أما مدينة نقاوس ومزارعها فهي في إقطاع شيوخ أولاد عساكر منذ العهد الموّحدي وحتى القرن 8هـ، وبخصوص الساكنة المحلية من البربر فلم يشر الكاتب إلا إلى نسبة العّجيسي ممثلة في الشيخ أبو عثمان سعيد بن موسى العّجيسي، وإلى فرع ريغة المغراويون الذين نسبت إليهم قلاع جبلية و حصون ذات أبراج يحتمي

---

[1] المصدر نفسه، ص426.

[2] المصدر نفسه، ص429-443.

[3] نقل عبد الرحمن الطولقي إلى سجن فاس، بعد أن تحالف مع مشيخة الدواودة، وشرد أهله من طولقة، ورجعت إلى حكم ابن مزني، ينظر: ابن الحاج النميري، فيض العباب، ص437.

[4] ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص450.

[5] ابن الحاج النميري، المصدر السابق، ص456.

بها اللصوص[1].

8.خاتمة:

ما استخلصته من خلال العرض السابق، أن الفترات الأولى لحركة الهلاليين في بلاد كتامة تحكمت فيها السلطة، لكن الفترة التي أعقبت تحيزهم إلى إقليم الزاب ستكون تحركاتهم مدفوعة تحت إشرافهم المباشر في ضل التنافس المجالي مع بدو زناتة، وانتظام تنقلاتهم أكثر في إتباع نقاط المياه والطرق الاستراتيجية، إلى غاية الاستقرار في إقليم الزاب، رأينا من خلال تتبع مسارهم كيف أثرت تنقلاتهم على أمن الطرق بظهور أعمال الحرابة، لكن في الوقت ذاته سيتحولون من أعراب مهاجمين إلى وحدات متحكمة في الجهاز السلطوي، تقوم بالإشراف على حفظ وحماية القوافل التجارية المتجهة شمالا إلى المناطق التّلية وجنوبا إلى أريغ وورجلان، وتحويل إقليم الزاب إلى قطب للإيستطان المحلي مما ساهم في تقليص ظاهرة البدونة التي رافقت هجرتهم في فتراتها الأولى، يضاف إلى ماسبق ضرورة الشروع في التحليلات الأثرية والرفع من قيمتها من أجل تعميق الملاحظات الخاصة بمسار تنقلاتهم المجالية، سيكون من الضروري في هذا المقام أن نشيد بزيادة عدد الدراسات الخاصة بتاريخنا المحلي بمزيد من التفصيل.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر المخطوطة:

1. المازوني، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، مخطوط المكتبة الوطنية بالرباط.

المصادر المكتوبة:

1. البيدق، أخبار المهدي بن تومرت وبداية دزلة الموحدين، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، 1971.
2. الحاج النميري، فيض العباب وافاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، ط1دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ، 1990.
3. ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون، مر، سهيل زكار، ج6، دار الفكر، لبنان، 2000.
4. ابن حنتاش، ينظر، مؤلفه، نهاية المرام في تيسير مطالعة الأحكام، دار ابن حزم، الدار البيضاء، ط1، 2011.
5. الزركشي، تح، محمد ناظور، ط2، 1966.
6. أبو زكريا الورجلاني، سير الأئمة وأخبارهم، تح، إسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت–لبنان، ط2، 1982.
7. السّلاوي، الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى.
8. الشريف الإدريسي، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ليدن.
9. ابن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تح، محمد ابراهيم الكتاني، دار

[1] المصدر نفسه، ص463.

الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط1، 1985.
10. محمد بن إبراهيم الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تح، محمد ماظور، ط1966،2.
11. ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908.
12. الوسياني، السير، تح، عمر بن لقمان حمو سليمان بوعصبانة، ج2، ط1، 2009.
13. يحي ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج2، مطبعة فونطانة، الجزائر، 1910.

قائمة المراجع باللغة العربية:

1. تاديوش ليفتسكي، دراسات شمال افريقيا، تر، أحمد بومقو، منشورات مؤسسة تاولات، سلسلة دراسات، ج1، 2005.
2. جغار عايدة، الحراك السكني كديناميكية حضرية بقسنطينة، دراسة نماذج، إشراف، د، محمد الهادي العروق، كلية علوم الارض والجغرافيا والتهيئة العمرانية، جامعة الإخوة منتوري، قسم التهيئة العمرانية، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في التهيئة العمرانية، 2015-2016.
3. عبد الله العروي، الفكر التاريخي، ط5 ، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ، 2006.
4. عبد الله العروي، ينظر: عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ط2، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2009.
5. علاوة عمارة،التحولات المجالية والطبونيمية لبلاد الزاب من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر ميلادي، أعمال الملتقى الوطني الأول حول التراث في منطقة الزيبان، مجلة تراث الزيبان، ع1، 2016.
6. مبروك الباهي، القبيلة في تونس في العهد الحديث(ق16-ق20) من بداوة الجمل إلى بداوة الخروف والحوز السباسب الوسطى مثالا، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بصفاقس، 2005.
7. يوسف عابد، التنقل القبلي في بلاد المغرب خلال القرن 6هـ/ الثاني عشر ميلادي، ضمن، الهجرة والرحلة، تقديم وإشراف، كمال فيلالي، ع3، أفريل 2010، مخبر الأبحاث حول حركات الهجرة، جامعة منتوري قسنطينة.

قائمة المراجع باللغة الفرنسية:

1. A.B, l'oued Elkebir et Collo, Constantine, revue africaine, année 1858.
2. A.L .Delattre, excursion dans le Zab occidental notes archéologiques et épigraphiques, in, Annales de l'institut d'études orientales, tom XV, année 1957, Alger.
3. Alloua Amara, peuplement et arabisation au Maghreb médiévale

l'exemple du pays kutama in, Alboran poblamiento e intercambios en has zonas costeras de Al-Andalus y el Maghreb , direction Billal Sarr.
4. Collection de centenaire de l'Algérie archeologie et histoire, histoire et historiens de l'Algérie, introduction, Stéphane Gsell, paris libraire, Félix Alcan .
5. Ernest Carette, recherches sur l'origine et les migrations des principales tribus de l'Algérie, imprimerie impériale, 1853.
6. Fernand Braudel, histoire et sciences sociales la longue durée, Annales, économies, sociétés civilisations, N, 04, année 1958.
7. Fouad Soufi, histoire et mémoire historiographie coloniale, insaniyat, 3, 1998.
8. Frédéric Sandron, l'immobilité forcie, la sédentarisation des nomades dans le sud tunisien.
9. Gautier Emile Félix, Les siècles obscures du Maghreb l'islamisation de l'Afrique du nord, Payot, paris, 1927.
10. Georges Marçais, les arabes en berbèrie du IX au XIV siècle, Ernest Leroux, Paris.
11. Georges Rolland, la conquête du désert, Biskra, Tougourt, l'oued Rir.
12. Grigori Lazerev, les mouvances de population dans les provinces sahariennes de l'histoire à aujourd'hui, texte publié dans le livre qui rend compte des communications présentées lors de l'hommage rendu au professeur Mohamed Berriane par ses collègues et des chercheurs lors de la rencontre organisée à Rabat, en juin, 2014, par la faculté des lettres et des sciences humaines de l'université Mohammed V.
13. Grigori Lazerev, mouvances tribales et dynamiques sociopolitiques des territoires, le Maroc du XVI au XIX siecle, article pubié dans l'ouvrage les intérieures du Maghreb, sous la direction de

Mohamed Aderghal et Romain Siminel, université Mohammed V (Rabat Agdal), Montpelier, 2016.

14. Hosni Kitouni, la Kabylie orientale dans l'histoire pays des kutama et guerre coloniale, casbah, Alger, 2013.
15. L'année géographique, revue annuelle des voyages de terre et de mer ainsi que des explorations, missions, relations et publications diverses relatives au sciences géographiques et ethnographiques, année 1863.
16. M.Feraud, inscriptions recueillies chez les oulade Abd-Elnour in, recueil des notices et mémoires de la societé archeologique de constantine, année 1864, Constantine.
17. Mohamed Meouak, les ziban entre Aurès et Sahara une géographie historique de Biskra et de ses oasis du moyen age à la fin de l'époque moderne, academia Scientiarum Fenica, 2017.
18. Ramzi Rouighi, Mediterranean relations for the medieval Maghreb historiography in question, Almasaq, 2017.
19. Salah Alouani, tribus et Marabouts A'rab et walaya dans l'intérieur de l'Ifriqiya entre le VI /et le XVIII siècles, introduction, Pierre Guichard, Academia scientiarum Fennica, Finlande 2010.
20. Tariq Madani, de la compagne à la ville, échanges, exploitation et immigration dans le Maghreb médiéval, revue du monde musulman et de la méditerranée, vol126, novembre, 2009.
21. Vermondo Brungnatelli, notes d'onomastique jerbienne et mozabite, universita di Milano-Bicocca.